

الجاحظ في كتابه البخلاء

١. د. مصطفى محمود

ألف الجاحظ كثيرا من الكتب ، وخلف من بعده آثارا لا تمحى . وكان من الذخائر الغربية الأصيلية « كتابه البخلاء » فقد ظل على مر الزمن يحفظ الجاحظ روحه المرحية الساخرة ، ويحمل للأجيال المتتابعة قصص البخل والبخل في أسلوب ممتع رائع ، وعبارات فكها حلوة وبيان ساجر أخذ فهو موسوعة عامة يتناول ألوانا من طرائف القصة ويتحدث عن أعلام كثيرة مشهورة يصور حالاتهم المختلفة موردا طرائف مشاهيرهم ، متندرا بملح البخلاء من العلماء والأدباء ، مثبتا ما يلحق ذلك من مناظرات بين الكرم والبخل وغير ذلك من الفوائد عن آداب العرب وعاداتهم في مآدب الضيافة .

لعل كثيرا من الناس يتساءلون : لم ألف الجاحظ كتاب البخلاء وما الدوافع التي دفعته الى ذلك الموضوع يتخذ منه مادة للدراسة أو مجالا للتسلية . والباحث الذي يتعرض للإجابة عن هذه الأسئلة يرى أكثر من دافع دفعت بالجاحظ الى هذا الحديث حتى ألف كتابا خاصا في سيرة البخلاء .

وآول هذه الدوافع أن الجاحظ نشأ في البصرة ثم عاد إليها في أيامه الأخيرة فقد شهدت صباه وشيخوخته أو تطلعت عليها براغمه ثم جفت بها أوزاق حياته ومعنى ذلك أنه أشرب روحها ووقعت عيناه عليها على ما لم تقع عليه في مدينته أخرى ، وتأثر بها كما لم يتأثر في مجال آخر

والبصرة في كل عهد من العهود التي شهدها الجاحظ مدينة تجارية بحرية كبيرة ومن شأن حياة المدن المشتغلة بالتجارة والمال أن تفسد فيها بعض القيم الخلقية والروحية . ثم هي مجتمع لكثير من أصحاب الآراء والمذاهب والنحل ومن بينهم الشعوبيون الذي حاولوا أن يغضوا من مثل العربى وقيمه ولا سيما الكرم ونتيجة لهذا وذاك أصبح البخيل — مجتمع البصرة — مذهباً يعتقد وفلسفة يدافع عنها بعض الناس وكان لا بد للجاحظ — وهو عربى الروح والدم واللسان — أن يسخر من هذا المذهب ودعائه وأن يعرض له ولهم في تهكم ونقد مريرين فكان كتاب البخلاء تحفة رائعة يفصح طباع البخلاء ويكشف أفعالهم ويسخر من تصرفاتهم ويتندر بها وبذلك ينتصر للعرب ويدافع عن طباعهم ، ويعتز بأخلاقهم وكرمهم .

ثم هناك دافع سياسى دفع الجاحظ كما دفع غيره الى تأليف مثل هذه الكتب تأكيداً لسلطة العباسيين وكشفاً عن مثالب الأمويين حتى تخلص الدولة من هذه الأثباح التي كانت تتخايل لها ، والدولة العباسية في ذلك الوقت كانت تحس الحاجة الشديدة الى التمكين لنفسها ببث الدعوة ضد هؤلاء الذين كانوا ما يزالون يمثلون في كثير من الأذهان طائفة من المزايا والفضائل لا بد من محاولة محققها باصطناع ضروب مختلفة من الدعاية الى جانب ما كانت تصطنعه من أخذ الأمويين وأنصارهم بالقوة وتحريم الاشارة بذكرهم . فكان من مظاهر هذا الموقف الذى اتخذته ضد الأمويين أن توحى الى العلماء والكتاب بكتابة الكتب وإذاعة الرسائل اشادة بمآثر الدولة القائمة وتمجيد العباس بن عبد المطلب وتفصيل هاشم على عبد شمس الى غير ذلك من الموضوعات التى تحقق ذلك الغرض من التماس شنع الأمويين وتصنيف الكتب فيها وطبعى أن يكون لرواة الأخبار نصيبهم الموفور من هذه السياسة وكذلك

جعلوا يتلقفون أخبار الشنع ما وجدوها يضعونها ويتزيدون فيها على خنفاء بنى أمية وعمالهم وسراهم ولعل في هذا الخبر الذى يحكيه الطبرى ما يؤدى إلينا صورة من هذا الذى نقرره اذ يقول :

« وذكر محمد بن عمر عن حفص مولى مزينة عن أبيه قال : كان هشام الكلبى صديقاً لى فكنا نتلاقى فنحدث ونتناشد فكنت أراه فى حال رثه وفى أخلاق على بغلة هزيلة والضرغيه بين وعلى يغلته فما راعنى الا وقد لقينى يوماً على بغلة شقراء من بغال الخلافة وسرج ولجام من سروج الخلافة ولجمها فى ثياب جدد ورائحة طيبة فأظهرت السرور ثم قلت له : أرى نعمة ظاهرة . قال لى : نعم أخبرك عنها فإتكم . بينا أنا فى منزلى منذ أيام بين الظهر والعصر اذ أتانى رسول المهدي فسرت اليه ودخلت عليه وهو جالس خال ليس عنده أحد وبين يديه كتاب فقال : ادن يا هشام فدنوت فجلست بين يديه فقال : خذ هذا الكتاب فاقرأه ولا يمنعك ما فيه مما تستفظعه أن تقرأه قال : غنظرت فى الكتاب فلما قرأت بعضه استفظعته فألقيته من يدي ولعنت كاتبه فقال لى : قد قلت لك ان استفظعته فلا تلقه ، اقرأه بحقى عليك حتى تأتى على آخره قال : فقرأته . فإذا كتاب قد ثلبه فيه كاتبه ثلثاً عجيباً . فلم يبق له فيه شيئاً فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الملعون الكذاب ؟ قال هذا صاحب الأندلس قال : قلت فالثلب - والله - يا أمير المؤمنين فيه وفى آبائه وأمهاته ثم اندرأت أذكر مثالبهم قال فسر بذلك وقال : أقسمت عليك لما أطلت مثالبهم كلها على كاتب قال : ودعا بكاتب من كتاب السرفجلس ناحية وأمرنى فصرت اليه فصدر الكاتب من المهدي جواباً وأملت عليه مثالبهم فأكثرته فلم أبق شيئاً حتى فرغت من الكتاب ثم عرضته عليه

فأظهر السرور ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب غُختم وجعل في خريطة
ودفع إلي صاحب البريد وأمر بتعجيله إلى الأندلس . قال : ثم دعا
بمنديل فيه عشرة أثواب من جياذ الثياب وعشرة آلاف درهم وهذه
النبلة بسرجه فأعطاني ذلك وقال لي : أكرم ما سمعت .

ان قصة كهذه تشير إلى مبلغ الخصومة التي كانت قائمة بين
العباسيين والأمويين والتي استخدم لها العلماء والكتاب من كل جانب
يتبادلون الشنع ويتقاذفون المثالب .

ولعل من أقرب الشئ تأثيرا في نفوس الجماهير ما يتعلق منها
بالمطاعم بين الشرة الذي تنتفزز منه الخضارة والبخل الذي تنفر منه
الانسانية وهما يتجاوران كثيرا في حديث البخل .

ولقد كانت حياة كثير من خلفاء بنى أمية مليئة بمظاهر البخل ،
وسيرهم مقرونة بتصرفات كثيرة شاذة يمكن أن تكون مادة وافرة
لأحاديث البخل والبخل . فهم يذكرون أن معاوية كان نهما شحيحا
على الطعام ويقولون : ان عبد الملك بن مروان : كان يلقب برشح الحجر
ولبن الطير لبخله . ويتحدثون عن سليمان بن عبد الملك أنه كان نهما
قذر الأكل ويذكرون هشام بن عبد الملك فيقولون انه كان بخيلا شديدا
البخل .

وهكذا أغرت حياة هؤلاء الخلفاء كثيرا من الكتاب أن يأخذوا
منها مادة دسمة يرسون بها قواعد الحكم في دولة بنى العباس، ويزيلون
بها الآثار التي كانت ترسم في أذهان كثير من الناس لخلفاء بنى أمية .

وكذلك التفت الجاهل إلى موضوع البخل وفيه نزعة الأدبية
الجياشة القوية المعس المرعبة الاستجابة التي يمتاز بها والتي كانت

تطبع شخصيته بطابعها فاندفع الى تأليفه كتاب « البخلاء » بروحه
التي ملكت عليه نفسه ، وطبيعته التي ارتسمت بها شخصيته فجاء
كتاب البخلاء تعبيراً عن نفسية الجاحظ الساخرة ، وانطلاقاً من اتجاهاته
المختلفة ، وتأكيداً لروحه الأدبية الخالصة التي تنزع الى ربط الأدب
بالفن وتصوير الحياة الواقعية تصويراً أدبياً رائعاً ، فهي حافزته اليه ،
وباعثته فيه ، وصاحبه الأمر في تصريفه وتلويحه .

وحين نتحدث عن الدوافع التي دفعت بالجاحظ الى تأليفه كتاب
البخلاء فلسنا نتجاهل الحياة الاجتماعية من حوله وما كان لها من تأثير
بالغ فيه حتى طبعت كتاب البخلاء بطابعها ، ذلك أن الحياة الاجتماعية من
حوله كانت معقدة أيما تعقيد ، مشتبكة النواحي والجوانب ، بغيدة
غاية البعد عن السهولة التي كان يتميز بها المجتمع الاسلامي .

وبذلك صار المال ميزان الرجال وأصبح من الأمثلة الجارية في
مدينة ك بغداد مثلاً : المال المال وما سواه محال يل اننا نرى أبا نواس
يمضو للمثل المشهود في غصوه فيقول :

سابقى الغنى : أما جليس خليفة نقوم سواد أو نخيف سبيل

وأخذ الناس يتكالبون على المال يتوسلون اليه بثتى الوسائل
لا يقفون عن محرم ولا يتورعون عن حبيث ولا يعابون أن يتخذوا من
المعاني الكريمة أسباباً يخادعون بها حرصاً عليه واجلالاً له حتى أصبحت
مظاهر الدين شركاً من شركه والى هذا يشير ابن المبارك فى شعر له
يدفع به الزهاد عن الإقامة فى بغداد فيقول :

ان بغداد للملوك محل ومناخ للقارىء الضياد

ولما ولى معاذ بن معاذ قضاء البصرة كتب اليه أبان اللاحقى :

يا معاذ بن معاذ ذ الخير يا خير حكيم
قد تهيا اللاحقى ون وأصناف تميم
لزموا مسجدا فى ضيقه أى لزوم
شمروا القمص وجكوا موضع السجد بثوم
كلهم يأمل أن تو دعه مال يتيم
فاتق الله فقد أص بحت فى أمر عظيم

الى كثير غير ذلك مما يشير الى أى حد عظمت مكانة المال وفتنته
حتى اتخذت تلك المعانى التى كان الأصل فيها العزوف عن الدنيا والبعد
عن زخارفها وسيلة للمخادعة عليها •

وهناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال بل تعد
فى حقيقة الأمر من أول العوامل المؤثرة فى قيامها • وهى نشوء طبقة
التجار الأثرياء فى البصرة وبعدها وهى الطبقة التى تقابل الطبقة
البورجوازية فى الغرب وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم اذ كانت تغزو
العراق والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب والذى
يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية وهذه الطبقة هى بطبيعتها
أكثر الناس تقديرا للمال وأشدهم مغالاة به وحرصا عليه مع اختلاف
أفرادها فى هذا وفى تقرير هذه الصفة الغالبة عليهم •

يقول الثعالبى : « ومعلوم أن البخل والنظر فى الطفيف مقرون
بالتجارة والتجار هم أصحاب التربيع والتكسب والتوفيق والناظر
فى كتاب البخلاء يرى أن معظم الشخصيات التى رسمها الجاحظ فيه
هم من هذه الطبقة حتى يمكن القول بأنه يعد من أحد جوانبه تصويرا

لها ، ووصفا لبعض ألوان حياتها • ولا زغب ان لنشأة الجاحظ في البصرة حيث تكثر هذه الطبقة وتحتل فيها مكانا ظاهرا . واتصاله على نحو ما ببيئاتها مما كان له أثره في اتجاهه الى تصويرها وفي هذه النظرة المتغلطة التي استطاع أن يكشف بها كثيرا من خفياتها ودقائقها وأن يعبر تعبيرا دقيقا واضحا عما يخالجها من مشاعر قلقة مضطربة بين المال وايثاره والحرص عليه والمغالاة به وبين هذه الحياة المترفة التي اصطنعوها وما تلزم به أهلها وتأخذ من أصحابها •

وإذا كانت هذه الدوافع مجتمعة وهذه الأسباب متكاملة هي التي دفعت بالجاحظ الى أن يكتب هذا الكتاب ، ويتجه هذا الاتجاه فهل يا ترى كان الجاحظ فريدا في هذا الكتاب أو بمعنى آخر ، ألم يسبقه أحد من الكتاب الى حديث البخل والبخلاء ؟ اننا نظلم الأدباء اذا قلنا ذلك ونعظمهم حقهم اذا زعمنا أن الجاحظ ابتكر هذا النوع ابتكارا ، ولم يتقدمه أحد من الكتاب في هذا الباب ، فمن المسلم به أن بعض الأدباء قد اتجه هذا الاتجاه قبل الجاحظ ومنهم الأصمعي وأبو الحسن المدائني وأبو عبيدة •

ولكن الانصاف يقتضي أن نفرق بين أحاديث البخل والبخلاء التي جاءت أخبارها على لسان هؤلاء الأدباء وبين أحاديث البخل والبخلاء كما أوردها الجاحظ في كتابه ، كما أن الاتصاف يقتضي أن نفرق بين الدوافع التي دفعت هؤلاء الكتاب السابقين الى كتابتهم عن البخل والبخلاء وبين الدوافع التي دفعت الجاحظ الى هذا اللون من الكتابة •

والباحث المحقق يرى أن أحاديث البخل وأخبار البخلاء التي جرت

على يد الكتاب قبل الجاحظ تسير في طريقين وتنتجه الى غايتين في أحد الطريقين يقوم دعاة الشعوبية فيردون على الشعوب فخرهم التقليدي بالكرم ويقولون ان أكثر هذا الفخر كلام لا يفي به الفعل ونوع من النفع لا حقيقة له في الواقع فهذا نوع من حديث البخل وجهته هذه الوجهة ولونته هذا اللون تلك الخصومة الجنسية التي ثارت بين الروج العربية والروج الشعوبية كما وجهت أنواعا أخرى مختلفة من الأحاديث وخلفت ضروبا أخرى من الكتب والتأليف .

وفي الطريق الأخرى يقوم دعاة الدولة القائمة ومن وضعوا أنفسهم في خدمة السلطان ومسايرته في سبيله من العلماء وأهل الأدب وهؤلاء من ينصر الدعوة العربية ويتعصب لها كالأصمعي ومنهم من هو أهمل الى الشعوبية كالمدايني وليست الدعوة للدولة بعيدة عن الدعوة للشعوبية فبينهما وشائج واصله وان كانت قد اتخذت لونا خاصا بها .

واذن فقد كان الدافع الى الكتابة عن البخل لدى هؤلاء الكتاب لا يخرج عن هذين السبيلين : الخصومة التنصرية التي أدركتها الشعوبية ، والخصومة الحزبية التي أثارها الدولة العباسية .

ولئن استفاد الجاحظ من ذلك الجو الى حد بعيد ، وتأثر به الى درجة كبيرة فان ذلك وحده لم يكن الدافع الوحيد الى كتابته البخل . وأما كانت كتابته بدافع الاستجابة لنزعة الفنية وروحه الأصلية وطبيعته الأدبية الخالصة .

ومن هنا كان الفرق الواضح بين أحاديث البخل والبخلاء التي ذكرها الكتاب السابقين فقد جاءت إظهارية بجهة تعرض صورا من

الحيلة الماضية دون الحياة الحاضرة وبين ما كتب الجاحظ عن البخلاء فقد ارتفع بكتابته عن الأسلوب الاخباري الى الأسلوب الفني ، وذلك قزع آخر هو قزع النفس الفنية الشاعرة اذ أخذ الجاحظ هذا الموضوع الذي كان أكبر مثارة الشهوات السياسية والعنصرية والذي كان جديرا أن يثير عوامل المشاقة والمخاصمة فجعله موضوعا أدبيا خالصا وممتعة فنية رائعة وكان رهينا بالأغراض الموقوتة التي أثير من أجلها مضار خالدا خلود النفس الانسانية يمتح منها ويصدر عنها ولها .

ولعل ذلك يسوقنا الى توضيح المنهج الذي انتهجه الجاحظ في تأليف كتاب البخلاء ، وبيان الصورة التي أملى بها أبوابه ، وسجل بها رواياته .

وأول ما يتبادر الى ذهن الباحث أن يتساءل : هل كان للجاحظ منهج خاص في تأليف « البخلاء » يتباين مع منهجه في الكتابة ، ويختلف مع طبيعته في التأليف .

وبمعنى آخر لقد كان للجاحظ خصائص معينة تتميز بها كتابته ، وتنضح بها طريقته تأليفه فالى أي مدى تجلت في كتاب البخلاء هذه الخصائص ، واتضحَت هذه السمات ؟ ان الدارس لكتاب البخلاء يرى صورة حية لأدب الجاحظ .

ومثال واضح لمنهجه في الكتابة والتأليف ، بل ان كل قطعة فيه تعد ساجدا قويا لا يعتمل الجدل على طبع الكتاب بظايع التجاحظ وتأثره بشخصيته والقرامه بالمنهج الذي انتهجه لتفهمه في الكتابة والتأليف . ولعل أول ما نعرض له من خصائص هذا المنهج ما اعقابه الجاحظ من

البراعة في الوصف والدقة في التصوير وليس هناك خلاف على أن الجاحظ كان من أقدر الكتاب على الوصف والتصوير فهو منذ طفولته كان قوى التصوير دقيق الملاحظة له قدرة رائعة على تسجيل الحقائق بدقة وبراعة فائقة يدل على ذلك دلالة واضحة ما سرده عن زميل له من أبناء العقابية الذين اتصلوا به في أيام « الكتاب » فلم يفت خياله أن يسجلها بجميع تفصيلاتها ودقائقها حتى أتاح له أن يقدم منها صورة حية واضحة تشهد له بهذه الموهبة التي وهبها منذ كان صغيرا وظل متمتها بها حياته كلها وكان خياله من أخصب الأخيلة وأقدرها على امداده بالتفصيلات الدقيقة والملاحظات الصغيرة مما تكمل الصورة وتستتم بها وسائلها الى الحياة الفنية النابضة التي تستثير الاعجاب والافتتان من قرارة النفس الانسانية •

ويمكن أن نرى أثر التصوير القوى والملاحظة الدقيقة والخيال الخصب والتفصيلات التي تحكى الصورة وتبرزها من جميع نواحيها وتضعها أمام القارئ وقد اجتمعت لها خصائص الوضوح وبلاغة التعبير وقوة التأثير •

يمكن أن نرى ذلك بوضوح في تلك القطعة التي صور بها هيئة على الأسواري وهو يأكل فيقول على لسان الجارثي أحد من بنى عليهم كتابه « وكان اذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكرو صدره وانبهر وتردد وجهه وعصب ولم يسمع ولم يبصر فلما رأيت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه صرت لا آذن له الا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلا ولم يفجأنى قط وأنا أكل تمرا الا أسقيته سفا وحساه حسوا وزدا به زدوا ولا يوجد كثيرا الا تناول القطعة كجمجمة الثور ثم يأخذ بحضنيها ونعلها من الأرض ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعها وخفضها حتى يأتى

عليها جميعا ثم لا يقع غضبه الا على الانصاف والأتلات ولم يفصل ثمرة
قط من ثمرة وكان صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفريق ولا رمى بنواة
قط ولا نزع قمعا ولا نفى عنه قشرا ولا فتنشه مخافة السوس والدود
ثم ما رأيته قط الا وكأنه طالب ثار وشحشحان صاحب طائلة وكأنه عاشق
معلم أو جائع مقرور » •

ان هذه الصورة الحية التي رسمها الجاحظ دون أن يغادر من
مقوماتها شيئا لتدل على ذلك الخيال المبدع الذي استطاع أن يصورها
في دقة وروعة وأن يضعها أمام أعين القراء دقيقة الأجزاء واضحة المعالم
جيدة العبارة لا تكلف فيها ولا تصنع ولا مبالغة وكان لا فرق بين أن
يقدمها اليينا في هذه المجموعة المختارة اختيارا دقيقا والمؤلفة تأليفا بارعا
من الألفاظ والكلمات وبين أن يرسمها مصور عبقرى بخطوط وألوان
الا أنها تمتاز هنا بالتعبير عن الحركة مما لا يد للتصوير به ولا قدرة له
عليه •

وبذلك يمكن أن نلمس منهج الجاحظ في الوصف ومذهبه في التصوير
فهو لا يلجأ الى تلمس التشبيهات والاستعارات يستعين بها في تصوير
المشهد الذي يريد أن يضعه أمام القارئ وكثيرا ما تجنح بالكتاب هذه
التشبيهات والاستعارات الى صورة أخرى غير التي يريدون اقرارها في
أخيلة القراء ثم لعلهم لا يصنعون هذه الأخيلة الا أن يثيروا فيها صورا
ملفقة عابثة أو يهيجوا فيها ما تهيجه الشعوذة في النظارة •

لم يبق الجاحظ الى ذلك في كتابه البخلاء ولعله لم يلجأ الى ذلك
المنهج في كتاب آخر ونم يتورط فيه الا بالقدر الطبيعي الذي يستثيره
الحس استثارة طبيعية لا صناعة فيها ، وتلك سمة أخرى من سمات

المنهج الذي أراده الجاحظ لنفسه في كتاب البخلاء ، وذلك ما يسمى في اصطلاح النقاد بالواقعية وتلك صفة غالبة على الجاحظ أعانته على أن يبلغ بأسلوبه ذلك المبلغ من دقة التصوير وروعة ، وساعده على ذلك قوة ادراكه لقيم الكلمات واحساسه الملم بالظلال التي تنتشر عنها وهدايته البالغة في كيفية تأليفها وتنسيقها ومزج ما بينها حتى تؤدي الأغراض التي بينها وتبرز الصور التي يتصورها .

ان الجاحظ في كتابه البخلاء لم يسلك سبيل المغالاة في الوصف ، والمبالغة في الخيال الى الجِد الذي يخرج به عن طوق المؤلف ويبيعه عن دنيا الواقع ، وانما حاول جاهدا أن يستخدم وسائله المختلفة في ابراز الصورة حية نابضة تملك على القارئ نفسه واحساسه دون أن يستشعر شيئا من الكلفة ، أو يحبس لونا من النفور والاستهجان .

ولم يكن منهج الجاحظ في كتابه « البخلاء » مقصورا على الوصف الحسي فحسب دون أن يغوص في أعماق النفس ، ويستشف حركات الباطن ، بل لقد اهتم الجاحظ بالوصف النفسي كما اهتم بالوصف الحسي ، فهو يحاول استشفاف الحركات النفسية المختلفة التي تلبس البخل ، ويكشف المحاولات الباطنة التي يحاولها البخلاء لاهوائهم وستره مرة ، ولتبريره والدفاع عنه مرة أخرى ، وهو مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية وتبين الحركات الشعورية المختلفة وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة من كلمة عابرة أو إشارة طائفة أو لفظة سريعة معجلة ولا ريب أن ما أتيج للجاحظ في حياته !! طويلة الحافلة من صلة بالمجتمع وثيقة ومداخلة للناس دائمة الى جانب ما عنده من قوة الملاحظة ودقة الحكم كان مما مكن له من هذه الناحية تمكينا كبيرا ووجه فنه إليها هذا التوجيه الخصب .

وحين نتحدث عن الصفات الفنية أو عن أبرز هذه الصفات الفنية التي اشتمل عليها منهج الجاحظ في كتابه «البخلاء» فليس من المستطاع أن نغفل صفة فنية برزت في وضوح وبيان، وتلك هي «السخرية» التي تعد من أبرز الصفات التي يمتاز بها الجاحظ في كتابته حين يأخذ في النقد والتصوير بل لعلها من أكثرها شيوعاً في آثاره المختلفة حتى ما يكاد القارئ المتمرس به يرى قطعة من قطعه الفنية من أن تكون مشوبة بروح السخرية أما في كتاب البخلاء خاصة فالأمر أظهر من أن يكون موضع مجازاة، فروح السخرية سارية في كل جزء من أجزائه قد فرقه في كل صورة من صوره .

ولعل الأصل في ذلك يرجع إلى طبيعة الجاحظ ومزاجه فهو رجل مرح النفس متلهي الخاطر منطلق الوجه نزاع إلى الضحك .

ومن ذلك ما نجده لديه من الدعوة إلى الضحك والمزاح والفكاهة والدفاع عنها ورد ما يعترض به عليها .

نرى صورة بيّنة من ذلك في مقدمة البخلاء ونذكر ذلك واضحاً في الفصل الطويل القيم الذي تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجوه النظر المختلفة فيه في رسالة التربيع والتدوير، وهو يرى أن الميل إلى المزاح والتقبل له إنما يكون من سهولة الخلق وسعة الأفق إذ يقول في موضع آخر من هذه الرسالة : « من يغضب من المزاح إلا كثر الخلق ومن رغب عن المفاهكة إلا ضيق الفطنة » كما كان يحكى عن نفسه كيف كان يسترسل في الضحك ويفرق فيه .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن ميل الجاحظ إلى السخرية وما إليها إنما جاء عن هذه الطبيعة المرحّة المنبسطة الضاحكة ثم إنه كان إلى جوار

هذا رجلا سهل الجانب لين الحاشية محبا للناس عطوفا عليهم لا يضيق بهم ولا يتبرم بعيوبهم ولا يتسخط عليها وانما هم في مختلف أشكالهم وشتى مسائلهم صورة من هذه الحياة التى يحبها وأمثلة من الانسانية التى يقدرها ويعطف عليها .

ومن هنا سلكت نفسه في نقدهم مسلك السخرية اللطيفة التى تشير الى مواطن العيوب وتصورها في جو مرح تتخلله بسمات الاستحسان وتغمره ضحكات السرور فالجاحظ نقادة بطبيعته ولكن لين جانبه وحبه للحياة نكبا به كثيرا عن طريق الجد الصارم في النقد وما يكون في هذا الطريق كثيرا من الغضب والتسخط والبغضاء وما اليها من المعانى المباشرة للحب المزورة عن سبيل الحياة وله في هذا كلمة دقيقة لعل فيها بياننا لتلك الطبيعة وتفسيرا لذلك المذهب وهى قوله : « الجد مبغضة والمزح محبة » .

وجملة القول أن قوة حيوير الجاحظ هذه تعد من أول العوامل في هذه النزعة الساخرة العابثة التى برز أثرها واضحا في كتابه «البخلاء» اذ تكاد كل قطعة من قطعه ، وكل صفحة من صفحاته تجلو لنا سوءة كاريكاتورية رائعة لا نقضى منها عجباً ، وتبين لنا الى أى حد كانت هذه الروح عنده والى أى مدى اجتمعت أدواتها لديه ويأى براعة ومقدرة أمتلك ناحية هذا النوع من التصوير الذى ينقد ويضحك في وقت معا .

تلك أهم السمات التى اتسم بها منهج الجاحظ في كتابه البخلاء وأدق الخصائص التى تميز بها عرضه لروايات البخل والبخلاء فهل لنا أن نعرف بعد ذلك في أى وقت وضع الجاحظ كتاب «البخلاء» .

ان هناك روايات متعددة وليس لدى الباحثين نص قاطع يمكن أن
 يدل على تاريخ محدد على وجه اليقين وان كان الحاجوى في
 تقديمه لكتاب البخلاء يميل الى أنه كتب قبل كتاب الحيوان .
 ويستدل على ذلك بأن الجاحظ نفسه أشار الى كتاب البخلاء حين
 قدم لكتابه الحيوان فقال : وعتبني بكتاب احتجاجات البخلاء ومناقضاتهم
 للسمحاء » واذن فهو سابق عليه . تم يؤكد أن الجاحظ قد كتب كتاب
 البخلاء بعد اصابته بالفالج لأن الجاحظ أشار الى ذلك في سياق قصة
 رجل يدعى محفوظا النقاش اذ يحكى عنه أنه قال له : « وأنت رجل قد
 ضعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفا . ومعنى ذلك أن الجاحظ
 قد كتب البخلاء بعد أن أصيب بالفالج .

وقد عرض المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في بحثه عن « أبى
 يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى » لتأليف الجاحظ كتابه البخلاء في
 سياق مقارنة النصوص التى تعين على استخلاص تاريخ وفاة الكندى
 فقال : « ثم ان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ يذكر ما ذكره عن الكندى في
 كتابه الحيوان والبخلاء في صيغة الماضى الدالة على أن الكندى كان
 ميتا حين كتب كتابه .

وكتاب البخلاء مؤلف على الراجح سنة ٢٥٤ وكتاب الحيوان سابق
 عليه فالكندى لم يكن حيا في سنة ٢٥٤ ولا في سنة ٢٥٣ ان صح أن
 الجاحظ كتب الحيوان في هذه السنة « فعلى هذا الغرض يكون الجاحظ
 كتب كتابه البخلاء قبيل وفاته بأشهر معدودات .

ولكننا نلاحظ أن الجاحظ كان يعانى في مثل هذه المدة من حياته

كثيراً من القلق والاضطراب النفسي كما كان كثير الشكوى من آثار
المرض وأعباء الشيخوخة الواهنة .

وليس في كتاب البخلاء أية إثارة تدل على هذه الحالة بل انه
ليدل دلالة واضحة على حاله نفسية هادئة مطمئنة وعلى نشاط موفور
لا يرنقه شيء مما يبعد معه أن يكون كتب في تلك المدة . وانما الأسباب
أن يكون كتب في أواخر عهد ابن الزيات وأوائل اصابته بالفالج في الوقت
الذي كتب فيه رسالة الجد والهزل ويغلب على الظن أنه كتبه وهو
بالبصرة .

ذلك هو أصح الأقوال في الوقت الذي كتب الجاحظ فيه كتابه
البخلاء فهل لنا أن نتساءل بعد ذلك عن محتويات هذا الكتاب، وما اشتمل
عليه من أسلوب تأليفى ؟ .

ان الذى ينشد الاجابة عن هذا السؤال في دقة واختصار يكفيه
أن يقرأ ما ذكره الجاحظ نفسه في وصف هذا المؤلف اذ يقول : « انه في
نواذر البخلاء واحتجاج الأشقاء ما يجوز من ذلك في باب الهزل
وما يجوز في باب الجد » .

فعلى هذا بنى الكتاب كله الا ما ذيله به من حديث العرب والأعراب
فهو بين أحاديث يسوقها على لسان بعض من عرفوا بالبخل من معاصريه
كسهل بن هارون والحرامى والحارثى والكندى والثورى وابن أبى المؤمل
وابن التوام والأصمعى يحتجون لمذهبهم في الاقتصاد في النفقة والتثمين
للمال أو مذهب الجمع والمنع كما يحلو للجاحظ أحياناً أن يذكره بهذا
الوصف ويدافعون عنه ما ينبذ به فيأخذ الجاحظ في ايراد هذه الحجج
مذاهب مختلفة فهو يسوقها مرة مساق الجد والسخرية تترقرق في

خلالها ويدهرسها أخرج في معرض السخرية المزيهية والتلوؤ المكشوف وهو في ذلك كله يحكى حركاتهم النفسية حكاية دقيقة ويعوض ما تورد على خواطرهم أسبابهم المختلفة التي تحكمهم من بواطنهم عوضاً رائعا وبين نواذر قصار مما يؤثر عن الخلاء ويصور بعض نواحيهم في ضربات سريعة ولحاحات خاطئة ، يتخلل بها تلك الأحاديث والرسائل التي قد تبلغ من الطول مبلغا عظيما وتمعن في تشقيق الكلام والتحليل للنفس امعانا كبيرا .

والجاذب انما يسير بذلك على طريقته التأليفية من المراوحة بين الأحاديث الطويلة والرسائل المسهبة بالطرق القصيرة والنواذر المقتضبة ايثارا لاستهواء القراء وحرصا على استجلاب رغبتهم ودفع السآمة والملل عنهم وقد كان من الكتاب الذين ينظرون الى القارئ ويرعون جانبه ويوجهون الى رضائه همهم وهو يعلم أن الرسائل الطويلة تثقل على جمهور القراء كما يقرر ذلك اذ يقول • الا أنى لا أشك على حال أن النفوس — اذ كانت الى الطرائف أحسن وبالنواذر أشغف والى قصار الأحاديث أميل وبها أحب — أنها خليفة لاستثقال الكثير وان استحقت تلك المعاني الكثيرة وان كان ذلك الطويل أنفع وذلك الكثير أرد •

وهكذا نجده لا يكاد ينتهى من رسالة سهل بن هارون حتى يأخذ في نواذر المراززة وما يكاد يفرغ من حديث خالد بن يزيد حتى يأخذ في حكاية بعض النواذر عن يحيى بن عبد الله وعلان ابن فلان وهكذا ينتهى من الكتب على هذه الخطة المرسومة • فاذا انتهى من هذا وبلغ من التصوير والتحليل غايته وحسب أنه قد أرضى بذلك رغبة القراء أن شهوة الناس كما يقول أخذته نزعته العربية فمال الى رواية مايتصل بهذا الباب من حديث العرب والأعراب فيقول :

« احتجنا عند التّطويل وحين صار الكتاب طويلا كبيرا الى أن يكون قد دخل فيه من علم العرب وطعامهم وما يتمادحون وما يتهاجون به شيء وان قل ليكون الكتاب قد انتظم جمل هذا الباب ولولا أن يخرج من مقدار شهوة الناس لكان الخبر عن العرب والأعراب أكثر من جميع هذا الكتاب » •

وكلّك يأخذ في الكلام عن أطعمة العرب وضروبها وما تسمى به في مناسباتها المختلفة ويصف طرفا من ألوان معيشتهم وما يلاقونه في الخصب والجذب مستشهدا لما يقول بشواهد من مآثور الشعر والنثر ثم يعرض لنا تقوله الشعوبية عنهم في الغض منهم والتشنيع عليهم فتأخذه شبنشنته في الدفاع عنهم ورد ما ينسب اليهم أو توجيه القول فيه متسعا في رواية الأشعار مما يتصل بهذا المنحى •

وبذلك ينتهى كتاب البخلاء • على أن أكثر ما في هذا الكتاب امتاعا واستثارة للذة الأدبية وأقوى ما فيه دلالة على قوة الجاحظ الفنية هو تلك الرسائل الطويلة والأحاديث المسهبة المفتتة التى وضعها الجاحظ وضعا وحقق بها رسالته الفنية تحقيقا طريفا وأتاح بها للغة العربية هذا اللون الرائع من ألوان الأدب •